﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

آية الولاية عند الشيعة الإمامية

تفسير ونقد

2020 - 1441

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

آية الولاية عند الشيعة الإمامية
تفسير ونقد

أ.د. عدنان محمد زرزور

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

دار المنتقى

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

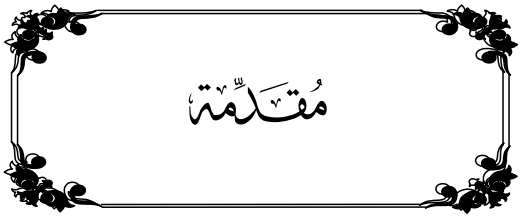

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بَدَأَ المِنَنَ وأعادها، وأسبغ النِّعَمَ وأفادَها، وألهم النفوس غِيَّها ورَشَادها، ومَدَّ الإحسان، وعلَّم بالقلم الإنسان، ومنحه العقل واليد واللسان.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ النبي الرسول العربي المصطفى الأمي، "الذي لم تَخُطَّ يمينه كتابا إذًا لارتاب المبطلون، ولم يرسم بَنَانُهُ حرفا ليزداد إيمان به المؤمنون"[1] وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

وبعد؛ فهذا بحث في سبب نزول آية من سورة المائدة، تعددت فيه الروايات وتضاربت ـ وبخاصة بين أصحاب الفرق ـ وقد ضمنتُه بعضَ الملاحظاتِ النقدية التي قَدَّرتُ أهميتها في بيان وجه الحق والصواب في هذا الباب، وعلى الله سبحانه قصدُ السبيل، ومنه تعالى التوفيق والعون والسداد.

---

(١) من مقدمة علم الدين السخاوي الدمشقي (ت ٦٤٣هـ) لكتابه: الوسيلة إلى كشف العقيلة.

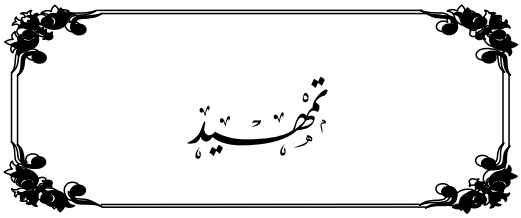

عَولت بعضُ الفرق في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في عقائدها، وفي تفسيرها للقرآن، على أسباب نزولٍ واهيةٍ أو لا أصل لها، فضلا عن أن هذه الفرق تفاوتت في محاولاتها «تفريغ» القرآن من دلالاته أو محتواه، عبر ما دُعِيَ بـ«التأويل»؛ وأعني التأويلَ الباطني أو تأويلاتِ أهل الباطن.

وقد قامت هذه المحاولاتُ على دَعوى أن النصوص ليست على «ظاهرها» الذي تدُلُّ عليه بحسب الوضع اللغوي، بل إن لها معانٍ «باطنيةً» لا يعرفها إلا الإمامُ المسؤولُ عن التأويل؛ كما هي الحال عند «الإسماعيلية» في غالب تفسيرهم للقرآن، وعند «الإمامية» في أحيانَ كثيرة؛ ولهذا قُلنا في تعريف هذا الباطن المزعوم: "إنه صرف اللفظ عن معناه ـ وإن شئت قلت عن «ظاهر» معناه ـ بلا دليل ولا قرينة"[1].

(١) انظر كتابنا: علوم القرآن وإعجازه: ص٣٥١ و ٣٥٤، وربما كان الشطر الأكبر من تفسير أهل الباطل بعامة يلتقي مع تفسير أهل الباطن، أو التفسير الباطني كما دعاه العلماء، والذي يمكن أن يقال في تعريفه على نحو أشمل: =

ونحن لا نتحدث في هذا البحث عن التفسير الباطني للقرآن الكريم، ولكننا أردنا فقط أن نقول:

إن التعويل في تفسير القرآن الكريم على أسباب نزول واهية أو موضوعة، لا يَقِلُّ في نتائجه عن تأويلات أهل الباطن هؤلاء، بل ربما كانت نتائج هذا التفسير أو محصلته أسوأ؛ لأنه يتوسل إلى مآلات الباطنية وتأويلاتهم بأمر معقول ومشروع، بل يجري عادةً التنويهُ به وبأهميته ـ ولزومه ـ في تفسير القرآن، وهو أسباب النزول؛ علما أن الذين يُعوِّلون على هذه الأسباب المصنوعة غالبًا ما يفسرون كثيرا من آيات الكتاب العزيز بتأويلات أهل الباطن من جهة، كما أن هذه الأسباب غالبًا ما تُخِلُّ بالسياق القرآني، بل تهدمُ النَّظمَ وتجعلُ القرآن عِضِينَ من جهة أخرى(١).

وسوف نناقش في هذا البحث أسباب النزول التي يَذكُرُها الشيعةُ الإماميةُ للآية الخامسة والخمسين من سورة المائدة، وما يتصل بهذه الأسباب ـ من بعض الأحاديث المعتمدة لديهم ـ،

= إنه التفسير الذي يقوم على صرف اللفظ في القرآن الكريم عن ظاهر معناه الذي حدده له السياق اللغوي الذي ورد فيه، إلى معنى آخر لا علاقة له به، وذلك من غير دليل ولا قرينة، ولا موجب يوجبه التركيب اللغوي، أو الدلالة الحافة بهذا اللفظ في التركيب اللغوي للآية، وفي نظم الآيات.

(١) مأخوذ من قوله تعالى في سورة الحجر/٩١: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾، أي الذين جعلوا القرآن أقساما وأجزاءً، ويُصرِّفونه بحسب أهوائهم؛ ليَصُدُّوا الناس عن الهدى.

وسوف نُعوِّل في هذا النقاش على قواعدِ نقدِ المَتنِ، وإن شئت قلتَ:

إننا سوف نلحظ في ذلك: اللغةَ والسياقَ والنَّظمَ ووقائعَ التاريخ، ونحوَ ذلك من القواعد.

أولاً:

روايات الكُليني والصَّدُوق

١ ـ روى الكُلِيني[١] في «الكافي» بسنده عن أبي جعفر عليه السلام[٢] قال: "أمر الله تعالى رسولَه بولاية علي، وأنزل عليه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وفَرَضَ ولايةَ أُولِي الأَمْرِ، فلم يَدرُوا ما هي، فأمر الله محمدا صلى الله عليه وآله أن يُفسّر لهم الولايةَ، كما فَسَّرَ لهم الصلاةَ والزكاةَ والصومَ والحجَ، فلما أتاه ذلك من الله ضاقَ بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، وتَخَوَّفَ أن يرتدُّوا عن دينهم وأن يُكَذِّبُوه، فضاق صَدرُهُ، وراجع رَبَّه تعالى، فأوحى الله إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]،

(١) توفي سنة ٣٢٨ أو ٣٢٩هـ.

(٢) محمد الباقر بن علي زين العابدين، ت ١١٤هـ

فصَدَعَ بأمر الله تعالى، فقام ﷺ بولاية عليٍّ عليه السلام يوم «غدير خُم» فنادى: الصلاة جامعة، وأمر أن يبلغ الشاهدُ الغائبَ".

قال أبو جعفر عليه السلام: "وكانت الفريضة تَنزلُ بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولايةُ آخرَ الفرائض؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله: لا أُنزِلُ عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض".

٢ ـ وروى في «الكافي» أيضاً في الحديث الذي يليه ـ وبسند آخر ـ عن أبي عبدالله عليه السلام[1]، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، قال: إنما يَعني: أَوْلَى بكم؛ أي أحقَّ بكم وبأموركم وأنفسكم وأموالكم: اللهُ ورسولُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ يعني عليًّا وأولادَه الأئمةَ عليهم السلام إلى يوم القيامة"؛ "ثم وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام في صلاة الظهر، وقد صلى ركعتين وعليه حُلَّةٌ قيمتها ألف دينار، وكان النبي ﷺ قد كساه إياها، وكان النجاشي أهداها له؛ فجاء سائِلٌ فقال: السلام عليك يا وَلِيَّ الله، وأَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، تَصَدَّقْ على مِسكين؟؛ فطَرَحَ الحُلَّةَ إليه،

(١) جعفر الصادق بن محمد الباقر، ت ١٤٨هـ

وأَومَى بيدِهِ أَنِ احمِلها؛ فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية، وَصَيَّر نعمةَ أولاده بنعمتهِ؛ فكلُّ مَن بَلَغَ من أولاده مَبلغَ الإمامةِ يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون وهم راكعون، والسائل الذي سَأَلَ أميرَ المؤمنين عليه السلام من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة"[1].

قال الفيض الكاشاني[2]: "وصيَّرَ نعمة أولاده بنعمته" يعني؛ أتى بصيغة الجمع بعد أن جعل نعمة أولاده شبيهةً بنعمته، نظيرةً لها، مُنضمَّةً إليها".

٣ ـ وأضاف: "روى الشيخ الصدوق[3] طاب ثراه في كتاب عرض المجالس، بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، قال: إن رهطا من اليهود أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام، وأسد وثعلبة، وابن أمين، وابن صوريا، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا نبي الله، إن موسى عليه السلام أوصى إلى يوشع بن نون، فمَنْ وَصِيُّكَ يا رسول الله؟ ومَن ولِيُّنا بعدك؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا، فقاموا

(١) الوافي: حديث ٧٤٧، مجلد ٢، ص ٢٧٦-٢٧٧.
(٢) الملا محمد محسن، ت ١٠٩١هـ.
(٣) ابن بابويه القمي، ت ٣٨١هـ.

فأتوا المسجد، فإذا سائلٌ خارج، فقال: يا سائل، أما أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم، هذا الخاتم، قال: من أعطاكَهُ؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يُصلِّي، قال: على أيِّ حالٍ أعطاك؟ قال: كان راكعا؛ فكبَّر النبي ﷺ وكبَّر أهلُ المسجد، فقال النبي ﷺ "عليُّ بن أبي طالب وَليُّكُم بعدي"؛ قالوا: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، وبعلي بن أبي طالب وليًّا: فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦].

"فروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: والله لقد تَصَدَّقتُ بأربعين خاتما وأنا راكع؛ ليُنزَلَ فيَّ ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل"[(١)].

تعقيب..

قلت: حكاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنه طريفة، وربما كانت أطرف من حكاية الملائكة الذين يسألون الأئمة بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد يكون المراد من هذه الحكاية توهين روايات نزول الوحي موافقاً لرأي عمر رضي الله عنه في بعض المواقف، فضلًا عن الإساءة المعهودة بطبيعة الحال[(٢)].

---

(١) الوافي: حديث ٧٤٨، ص ٢٧٧-٢٧٩.

(٢) رجعت ـ بمناسبة هذا الحديث ـ إلى رواية ذكرها النوري الطبرسي =

ولا ندري إن كان ثمن أربعين خاتما يُشكل عبئا ماليا على عمر ﷺ؟ إن كانت الحُلَّة ـ التي تساوي ألف دينار قد وسعها مال النجاشي أو التي «أوسع» له فيها ـ حَلاّ لمعضلة أن علياً إمام الزاهدين ﷺ يَلبَسُ حُلَّةً بهذا الثمن الفاحش![1]

وربما ذكَّرنا النجاشي في هذا المقام بالخَضِر عليه السلام، كما لاحظنا ذلك في بعض أحاديث الإمامية، حيث يُنسَب إلى الخَضِر ما يَصعُبُ نِسبَتُهُ إلى الأحياء.

= حول سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ص ١٥٨ من فصل الخطاب؛ فوقع بصري في هذه الصفحة على الرواية الآتية بحق سيدنا عمر ﷺ؛ قال النوري: "عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: لما قام عمر بن الخطاب إلى النبي، فقال: إنك لا تزال تقول لعلي: أنت أخي مني بمنزلة هارون من موسى، وقد ذكر الله هارون في القرآن ولم يذكر علياً!!، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا غليظ يا أعرابي، أما تسمع الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ اهـ.

ولا يدري المرء مِمَّ يتعجب؟ ولسائل أن يسأل: أهذا كلام يقوله محمد رسول الله العربي القرشي الهاشمي، ومُعلّم الناس الأدب والخير إلى يوم القيامة ﷺ.

وانظر: عيد مقتل عمر بن الخطاب ﷺ (الحديث الثاني والعشرون من كتابنا: السنة النبوية بين أهل السنة والشيعة الإمامية، ص ٣٤٨، ط دار الأعلام عمان).

(١) كانت تركة علي بن أبي طالب سبعمائة درهم، كما قال ابنه الحسن في خطبة له، وكان يريد أن يشتري بها خادما، وقال عمر بن عبدالعزيز: "أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه". البداية والنهاية لابن كثير: ٩/٢١٠.

وبغَضِّ النظر عن أن السائلين ـ في هذه الرواية ـ كانوا من مُسلمة اليهود، وأنهم مَضَوا إلى رسول الله ﷺ عقب دخولهم في الإسلام مباشرة ـ ولا ندري هل أسلموا معا أو في يوم واحد ـ وأنهم كذلك «قاسوا» خاتم النبيين ﷺ على موسى ﷺ ـ علما بأن قياس أمة محمد على أمة موسى فاشٍ في كتب الإمامية ـ فإن أمارات الوضع والتركيب في هذه الروايةً كثيرة، وبخاصة إذا كان النبي ﷺ ومن سار معه نحو المسجد إنما لَقُوا الرجل، أو لقوا رجلًا وعرفوا أنه سائل خارج المسجد أو على بابه؛ إذ كيف يُكبِّرُ أهل المسجد، والسائلون أَحقُّ بهذا التكبير منهم؛ لأنهم أُجيبُوا إلى ما طلبوه أو ما سألوا عنه؛ علما أن النبي ﷺ لم يكن يقعد للناس ـ أصلًا ـ في غير مسجده الشريف!!

وعلما كذلك، أنه هو الذي يَؤُمُّ المسلمين في الصلوات المكتوبة في هذا المسجد، فكيف جاء النبي ﷺ مع مسلمة اليهود هؤلاء إلى مسجده ليجدوا "أمير المؤمنين في صلاة الظهر، وقد صلى ركعتين"؛ أي أنه كان قد صلى ركعتين من الفريضة أو الصلاة المكتوبة... إلخ.

❁ ❁ ❁

ثانياً:

تفسير آية (الولاية): نقد وتعليق

وأكتفي في التعليق على تفسير هذه الآية بالملاحظات الآتية:

١ ـ الآيات هي التي فسرت معنى الولاية:

نحن لا نعتقد أن أحدا سأل رسول الله ﷺ أن يُفسِّر لهم الولاية، كما فسَّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج؛ لا لأن هذه المضاهاة أو التسوية لا تستقيم، بل لأن الآيات القرآنية نفسها هي التي فسَّرَت الولاية، أو بَيَّنَت المعنى المراد بالولاية في هذا السياق، والقرآن عربيُّ الخطاب، ولسانُ من نزل على قلبه عربيٌّ، بل هو أفصحُ مَن نَطَقَ بالضَّاد، كما أن لسانَ من تنزل بين ظهرانيهم وخُوطِبُوا به عربي كذلك.

نقول باختصار شديد: الآياتُ القرآنيةُ نَهَت الذين آمنوا

عن موالاة اليهود والنصارى، وأعلمتهم بأن من يَتَوَلَّى الله ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون(١).

والآياتُ الأولى التي نهت المسلمين عن موالاة اليهود والنصارى هي الآيات من (٥١) إلى (٥٤) من سورة المائدة.

---

(١) في وُسع أي ناظر في كتاب الله تعالى أن يقف على معنى الولي والولاية وأولياء الله.

وقد ورد الحديث عن الولاية في عشرات المواضع، وتكفي الإشارة إلى أن الآية (٥٦) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ التالية للآية مَحَلّ البحث؛ يقابلها في آيات الكتاب العزيز قوله تعالى في سورة النحل في سياق الحديث عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [٩٩ ـ ١٠٠]، فهؤلاء يمكن تعريفهم بأنهم حزب الشيطان ـ المقابل لحزب الله ـ، وقد نصت الآيتان ٦٢ و٦٣ من سورة يونس على تعريف الولاية؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فأولياء الله تعالى هم المؤمنون الذين وَالَوه بالطاعة والعبادة، وعليٌّ من هؤلاء المؤمنين، ولكن لا يمكن أن يكون هو المؤمن الوحيد، أو جميع المؤمنين إلى يوم الدين!

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [الآية ٢٥٧]، وأخيرا قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة ٧١]؛ ولا أدري ما موضع تعريف الولاية عند الإمامية من هذه الآيات.. ونحوها كثير، والله أعلم.

والآيات التي بعدها ـ بدءًا من الآية (٥٥)، أو الآيتين (٥٥) و(٥٦) على وجه التحديد ـ أخبرت المؤمنين أو أمرتهم بأسلوب تقريري أن وَلِيَّهُم: الله ورسوله والذين آمنوا..

أما الآية (٥٧) فقد بَيَّنَت سببا آخر للنهي الأول عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وهو أنهم اتخذوا دينكم ـ أيها المؤمنون ـ هُزُوًا ولعبا؛ وإليكَ ـ أيها القارئ ـ نصَّ هذه الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

وقد تَحمِلُ هذه الآية الأخيرة (٥٤) إشارةً إلى أن اتخاذَ اليهود والنصارى أولياء ضَربٌ من الرِّدَّة عن الإسلام، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك أو مُهِّدَ لها بقوله تعالى في الآية (٥١): ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

وقال تعالى بعد هذه الآيات: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الآية: ٥٦].

أما الآية (٥٧) فنصُّها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

٢ ـ سبب نزول هذه الآيات:

نشير هنا أولا إلى سبب نزول هذه الآيات (من ٥١ إلى ٥٦) في المراجع المعتبرة لدينا:

يقول الإمام الشوكاني: "أخرج ابن إسحاق وابن جرير «الطبري» وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: "لما حَارَبَتْ بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ، تشبثَ بأَمرِهِم عبدُالله بنُ أُبَي بنِ سَلُول وقامَ دُونَهم، ومَشَى عُبادةُ بنُ الصامت إلى رسول الله ﷺ وتَبَرَّأَ إلى الله وإلى رسولهِ من حِلفِهم، وكان أحدَ بني عوف بنِ الخزرج، وله مِن حِلفِهم مثلُ الذي كان لهم من عبدالله بن أُبَي بن سلول؛ فخَلَعَهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أَتَبَرَّأُ إلى الله وإلى رسوله من حِلفِ هؤلاء الكُفَّار ووَلَايَتِهِم.

وفيه وفي عبدالله بن أُبَيٍّ نزلت الآيات في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؛ أي الآيات المذكورة (من ٥١ إلى ٥٦)..

وأخرجَ عبد بنُ حميد عن حذيفة قال: "لِيَتَّقِ أحدُكُم أن

يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يَشعُر، وتلا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، كعبدِالله بن أُبَيٍّ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾: في وَلَايَتِهم[1].

٣ ـ معنى ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ وإعرابها:

الآية الكريمة التي خاطبت الذين آمنوا بأن وَلِيَّهُمُ الله ورسوله والذين آمنوا، والتي قررت بهذا الوصف الأخير: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن المؤمنين بعضُهُم أولياءُ بعض ـ في مقابلة أن اليهودَ والنصارى بعضُهُم أولياءُ بعض ـ هذه الآية الكريمة وَصَفَت الذين آمنوا بأنهم يُقيمُون الصلاةَ ويُؤتُون الزكاةَ وهم راكعون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فوَصَفَتهم بألزم صِفَاتِهم بوجهٍ عام، وفي هذا السياق بوجه خاص؛ فهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وفاءً بحق الله تعالى وموالاةً لله ولرسوله، ويُؤتون الزكاة وفاءً بحق جماعة المؤمنين وموالاةً للذين آمنوا؛ **قال تعالى**: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، أي وهم خاضعون خاشعون مُتَذَلِّلُون لله تعالى في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ أي أن هذه الجملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ حَالِيَّةٌ مِنْ فاعلِ هذين الفعلين (واو: يقيمون ويؤتون) وليست «حالا» من فاعل أحدهما أو الثاني منهما.

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني ٢/٥٢.

وقيل: بل هي حالٌ مِنْ فاعل الزكاة فقط، وأن المرادَ بالركوع هو ركوع الصلاة ـ وليس بمعنى الخضوع الذي لا يزال فاشيا في كلام الخاص والعام ـ والمعنى: أنهم يَدفعُون الزكاة وهم راكعون، أو في حال ركوعهم، ويُعلِّق الإمام الشوكاني على ذلك بالقول: "ويَدفَعُهُ عدمُ جواز إخراج الزكاة في تلك الحال..."[١]، ويضيف الحافظ ابن كثير: "ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحدٍ من العلماء ممَّن نعلمُه من أئمة الفتوى...، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مَرَّ به سائلٌ في حال ركوعه فأعطاه خاتمه..."[٢]، ثم ذكر في هذا عِدَّةَ رواياتٍ نَقَدَها وبَيَّنَ أنه لا يُعتدُّ بها، ومنها روايةُ الشيخ الصَّدُوق السابقة، وذلك "... لضعف أسانيدها وجهالة رجالها..."[٣].

ولسائل أن يسأل: ما دلالة أن يَدفعَ المرءُ الزكاةَ وهو راكعٌ، حتى تكون هذه الحال موضعُ ثناءِ القرآنِ الكريم؟

وهل يمكن القول: إن دفع الزكاة على هذه الحال ـ وقد يَخِلُّ ذلك بالخشوع ـ أفضل من دَفعِها في الصلاة في حال القيام أو القعود أو السجود مثلا، أو أفضل من دفعها خارج الصلاة؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن كثير ٨٢/٢.

(٣) المصدر السابق صفحة ٨٣.

أما التفسير الذي ذكرناه، فهو واضح الدلالة أن الذين «يستحقون» أن يكونوا أولياء للمؤمنين مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، هم الذين يخشعون في صلاتهم ـ كما قال تعالى في وصفهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]، والذين يخضعون ويتذللون لله تعالى في أداء زكاتهم، فيؤدونها للفقراء والمساكين دون تكبُّر أو مَنٍّ أو أذىً.

وفحوى هذا.. **أن ولاية علي ﷺ، على النحو الذي يَدَّعِيه الإماميةُ، يَبعُدُ أن يكون سببها ـ أوحتى علامتها ـ التَّصَدُّقَ بحُلَّتِه التي تساوي ألف دينار أو بخاتمِهِ المتواضعِ وهو راكع، والله أعلم!!**

٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جَمعٌ وليس مفردًا:

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، أن الآية نصَّت على ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هم جماعة وليسوا واحدا؛ لأن «مِن» ـ الموصولة ـ قد يُراد بها المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، ولكن اسم الموصول «الذين» لا يُراد به غيرُ جمع المذكر؛ لأنه جمع «الذي» ـ للمفرد المذكر ـ، قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن عبدالملك، عن أبي جعفر قال: سألته عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾، قلنا: مَنْ الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا! قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ؛ قال: عليٌّ مِنَ الذين آمنوا!!

وقال أسباط عن السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب ﷺ مرَّ به سائل وهو راكع في المسجد، فأعطاه خاتمه؛ وقال علي بن أبي طلحة الوَالَبي عن ابن عباس ﷺ: "مَنْ أسلم فقد تولَّى اللهَ ورسولَه والذين آمنوا..." رواه ابن جرير(١).

ويبدو لنا ـ بهذه المناسبة ـ أن رواية الكُلَيني الأولى ـ رواية التَّصَدُّق بالحُلَّة التي تساوي ألف دينار، وهي الرواية الأقوى والأساس عندهم ـ أشارت إلى مسألة «الذين» هذه، أو إلى مسألة الجَمع دون المُفرَدِ؛ وإن شئت قلت: «احتاطَت» لها؛ فأضافت إلى علي بن أبي طالب ﷺ "كُلّ مَن بَلَغَ من أولاده مَبلَغَ الإمامة..." وقالت: إنهم يَتَصَدَّقون وهم راكعون، بِغَضِّ النظر عن أن هذه الرواية نصَّت كذلك على أن السائل الذي سأل «أمير المؤمنين» كان من «الملائكة»، وأن الذين يسألون «الأئمة» من بعده يكونون كذلك من «الملائكة»؛ ولكنها ـ أي هذه الرواية ـ لم تَذكُر بماذا يتصدق هؤلاء الأئمة على الملائكة!!

والراجح أن التَّصَدُّقَ بحُلَّةٍ تساوي ألفَ دينار مستبعدٌ جدا بعد النَّجَاشي، وبخاصة أننا لا نعلم مدى حاجة الملائكة للخواتم والحُلَل، أو احتفائهم بها، وبغَضِّ النظر عن أن الصدقةَ إنما تكون على الفقراء والمساكين.. والله أعلم.

(١) تفسير ابن كثير ص ٨٣.

٥ ـ زكاةٌ واجبةٌ لا صدقةُ تَطَوُّعٍ:

إن الاعتراضَ مِن قِبَلِ بعض مُفَسِّري أهلِ السنة بعدم جوازِ إخراج الزكاة في حالِ الركوع، أو أنه لا قائلٌ بأن دفع الزكاة في حال الركوع أفضل، ليس واردا على هذا النحو؛ لأن الروايات الإمامية تدلُّ على أن ما نُسب فِعلُه إلى علي بن أبي طالب ﷺ إنما هو «صدقةُ» تطوُّع وليس «زكاة»، سواءٌ أكان ما تَصدَّقَ به لا يعدو خاتما يساوي بضعة دراهم أو دنانير، أم حُلَّةً تساوي ألف دينار؛ بل إن حَملَ التَّصَدُّق بهذه الحُلَّة على أنه زكاة يصعب قبوله عند الكافة، وقد لا يَتَأَتَّى بحال؛ لأن مَنْ يَدفعُ ألف دينار زكاةً، لابد أن يكون مالكا لأربعين ألف دينار، وقد لا يكون ما دفعه كلَّ زكاة مَالِهِ كذلك!!

وغَنِيٌّ عن البيان أن «الزكاة» تُسمَّى صدقةً، ولكن «الصدقةَ» لا تُسمَّى زكاةً في الكتاب العزيز[١]، وسياق الجَمع بينها وبين الصلاة في هذه الآية بَيِّنٌ في أن المراد بها: الزكاة الواجبة أو المفروضة..

وفحوى ذلك أن تفسيرها بـ«صدقة التطوُّع» بعيدٌ أو فاسد، ومن هنا جاء اعتراضُ المفسرين المذكور، ولكن هذا الاعتراض كان بحاجة إلى بيان أن مُنطَلَقَهُ هو أن الزكاةَ في هذا

(١) ذهب بعض المفسرين إلى تفسير الزكاة بصَدَقةِ التطوُّع في مواضع قليلة جدا من الكتاب العزيز، وفي غير المواضع التي قُرِنَت فيها الزكاة بالصلاة ـ وهذه المواضع هي الأعمُّ الأغلب أصلًا في كتاب الله تعالى ـ ولكن ما ذهبوا إليه بعيدٌ جدا للمتأمل.

السياق لا يمكن أن تنصرف إلى الصدقة التي فَسَّرَ بها الإماميةُ هذا اللفظ، ثم «رَوَوا» أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ تصدَّقَ بصدقته تلك، فدَفَعَها للمَلَك أو السائل المسكين؛ **وكأن «المشروع الإمامي» في تفسير الآية مَبنيٌّ على الخطأ في صَرفِ معنى الزكاة التي هي من أركان الإسلام** ـ تضاف إلى ركن الصلاة أو تقرن به ـ **إلى كونها صَدَقةً من الصدقات!!**

❁ ❁ ❁

ثالثاً:

تفسير آية البلاغ: نقد وتعليق

ونورد في تفسير هذه الآية، وفي التعليق على رواية الكليني ـ التي ربطت بين الآيتين ـ الملاحظات الآتية:

١ ـ ضيق صدر النبي ﷺ افتراء على الله ورسوله:

سائر ما ورد في رواية الكُلَيني الأولى مِن أن الله سبحانه وتعالى حين أَمَرَ نبيه الكريم ﷺ أن "يفسر لهم الولاية"، فضاق صدره ﷺ "وتخوف أن يَرتَدُّوا عن دينهم وأن يُكَذِّبُوه، فضاقَ صَدرُهُ وراجع ربه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، إلخ الحديث؛ أقول:

أَقلُّ ما يقال في هذا إنه مَحضُ افتراء على الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأن عاقلا على وجه الأرض لا يَفهَمُ سببا لهذا التخوُّف العجيب الذي كان يَفتقرُ إلى أدنى مُبَرِّرَاته أو أسبابه

أو مقدماته، فضلا عن أن يَضيقَ صدرُ النبي ﷺ بما أَمَرَهُ به ربه سبحانه وتعالى ـ عزّ وجه النبي عن ذلك ـ.

هذا من وجه، ومن وجه آخر، فإننا لا ندري مِنْ أين عَلِمَ الكليني أو رُواتُه أن النبي ﷺ ضاق صَدرُهُ مرتين ـ أو أنه ضِيقٌ واحدٌ ذُكِرَ مرتين ـ وأنه تخوَّفَ من أن يرتدَّ أصحابه عن الإسلام، وأن يُكَذِّبُوه؟!! فهذه كُلها أحوالٌ نفسيةٌ لا مجال لمعرفتها بدون التصريح بها أو الإفصاح عنها من قبل النبي ﷺ نفسه.

وبغض النظر عن أن الموضوع من الأساس لا يَقبَلُ العقلُ أن يكون من أسباب الردة عن الإسلام، والتكذيب للنبي ﷺ؛ اللهم إلا عند من يَشيعُ في ثقافته اللعنُ والتكفير، وهذا موضوع طويل.

٢ ـ سِياقُ ونَظمُ الآيات:

ثم إننا لا ندري ـ ولا يَدري معنا أيُّ قارىء للقرآن ـ ما علاقة «الولاية» و«غدير خم» و«إكمال الدين» بالآية المذكورة التي جاءت في سياق حديثٍ مُتَّصلٍ عن «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى «قبلها» و«بعدها»؛ أَم أن الأصل في التفسير أن يُجعَلَ القرآنُ «عِضِين»، وأن يتم الدَّسُّ والطعن على صحابة النبي ﷺ وتصويرُهم على أنهم على أُهبَةِ الاستعداد للرِّدَّة عن الإسلام، وتكذيب نبيهم الكريم في متى سنحت الفرصة!!

فالآيتان السابقتان للآية (٦٧) ـ آية البلاغ كما دُعِيَت ـ هما:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦].

والآية التالية للآية المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨].

قلت: أُمِرَ رسول الله ﷺ بأن يُبَلِّغ ما أُنزلَ إليه من رَبِّه الآية (٦٧)، ثم صُدِّرَت الآية (٦٨) بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، هؤلاء هم المبلَّغون وليسوا الصحابةُ هم الذين لم يَدرُوا ما معنى «الولاية»، أو لم يعرفوا معنى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الرغم من أنهم لم يكونوا من الأعاجم!!

الخطاب إذن لأهل الكتاب، وفحواه في هذه الآية (٦٨) مُجَابَهَتُهم بأنهم ليسوا على شيء ينفعهم أو يُعتَدُّ به حتى يَعمَلُوا بما في التوراة والإنجيل؛ لأنهم إن هم فعلوا ذلك فسوف يَستَجِيبُون لدعوة النبي ويدخلون في الإسلام[1].

(١) راجع: فتح القدير، للإمام الشوكاني ٢/٦٠ ـ ٦١.

ثم نصت الآيات بعد ذلك على كُفر القائلين إن الله هو المسيح ابن مريم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية ٧٣.

لقد أُمر النبي ﷺ بأن يُعلن لهم هذا، وأن يُجابههم به على هذا النحو الحاسم، وهذا الأمر أو التكليف ليس من السهولة بمكان في ضوء علاقة المسلمين بأهل الكتاب بوجه عام[1]، وبيَهُود المدينة بوجه خاص؛ وها هي الآية (٧٨) النازلةُ الآن في هذا السياق تَنُصُّ على لَعنِهم؛ قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ الآية ٧٨، والذين وصفتهم الآية (٨٢) بأنهم والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾، وقد أشارت هذه الآية والآيات (٨٣ ـ ٨٥) التي تليها إلى طائفةٍ من النصارى وصفتهم بأنهم أَقرَبُهم مودةً للذين آمنوا، وتحدثت هذه الآيات عن دخول هذه الطائفة في الإسلام، فجعلتهم بذلك مثالا لما ينبغي على النصارى جميعا أن يفعلوه، بدلا من الإصرار على الكفر.

وراجع الآيات (٦٩ ـ ٨٦)، ومنها نص الآيتين (٨٢ ـ ٨٣)، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) راجع: في ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب: المجلد الثاني، ص ٩٣٧.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قلت: ربما أمكَنَ القول: إن النبي ﷺ كان بحاجة إلى أن تُقوَّى فيه عزيمته على هذا الإعلان ـ في ضوء هذا ـ فلا يُؤخِرُهُ مثلا انتظارا للّحظة المناسبة، أو خِشيةَ إلحاق الأذى به من الناس ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؛ أي مِنَ الآخَرينَ الذين أشارت إليهم الآيات، وبخاصة اليهود والذين أشركوا، والذين ما زالوا يتربصون به وبدعوته الدوائر.

وأخبره تعالى بأنه إن لم يُبَلِّغْهُم ما نُزِّلَ عليه بشأنهم فما بَلَّغَ رسالته، وهي آيات الوحي التي لابد من إبلاغها كاملة غيرَ منقوصة، وحال نزول الوحي عليه دون إبطاء أو تأخير؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: "يعني: إن كتمت آيةً مما أنزل عليك من ربك لم تبلغ رسالته؛ أي لم تكن ممتثلا بجميع الأمر"[1].

قال الإمام الزهري: "مِنَ الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم"، وقال الحافظ ابن كثير: "وقد شَهِدَت له أمته ﷺ بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حَجَّة الوداع، وقد كان هناك من

(١) مجمع البيان للطبرسي: ٣/٣٤٤.

الصحابة نحو من أربعين ألفًا[١]، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ـ وهو حديث طويل في حجة النبي ﷺ، ومن رواية جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: "وقد تركت فيكم ما لن تَضِلُّوا بعده: كتابَ الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغتَ وأدّيت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة؛ يرفعها إلى السماء ويَقلِبُها إلى الناس، ويقول: "اللهم اشهد.. اللهم اشهد.." ثلاث مرات[٢].

وروى البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: "خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر..."، وفيه: قال رسول الله ﷺ: "فإن دماءكم وأموالكم ـ وفي وراية ابن عمر رضي الله عنه في البخاري أيضاً: زاد: وأَعرَاضَكم ـ عليكم حرامٌ كحُرمَةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، **ألا هل بلغت؟**"، **قالوا: نعم، قال:** "**اللهم اشهد**؛ فليُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع؛ فلا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضكم رقابَ بعض..."[٣].

وقال هشام بن الغاز: أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه: وقف النبي ﷺ يوم النَّحر بين الجَمَرَات، في الحجة التي حج،

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٩٠، واختصار علوم الحديث، لابن كثير: ص ١٨٥
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: الحديث ١٢١٨، ص ٧٦٩ ـ ٧٧٩.
(٣) صحيح البخاري: ح ١٧٤١، ص ٣٣٢.

بهذا، وقال: "هذا يوم الحج الأكبر"، فطفق النبي ﷺ يقول: "اللهم اشهد، ووَدَّعَ الناس، فقالوا: هذه حِجَّةُ الوداع"(١).

٣ ـ حول سبب النزول:

ولا بد من الإشارة أخيرا إلى أن سورة المائدة، وسورة الفتح، آخر ما نزل من القرآن(٢)؛ أي أن الأمر الآن يتعلق بمستقبل الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، ومعلوم أن أهل الكتاب ـ والنصارى منهم بخاصة ـ هم أبرزُ الأمم الباقية أو المستمرة في العالم؛ فلابد أن تكون مسألة العقيدة واضحة جلية، لا يجوز لأحد من المسلمين التهاون بشأنها، أو إدخال الضَّيم عليها، في ظل أخلاق التعامل مع أهل الكتاب التي شرعها الإسلام، بِرًّا وعدلًا وإقساطًا، إلى جانب مُساكَنَتِهم ومُؤاكَلَتِهم والتزوج من نسائهم... إلخ؛ لأن هذا شيء، والاعتقاد بأن ما هم عليه من الإيمان بالتثليث وألوهية المسيح ونحوه، أنه كُفرٌ شيء آخر؛ فلا تهاون ولا «مجاملة» في مسائل الإيمان والاعتقاد؛ ثم إن الله تعالى هو الذي يَفصِلُ بين الناس يوم القيامة؛ لأنه أعلمُ بأحوال خلقه، وبأسباب إيمانهم

(١) المصدر السابق: ح ١٧٤٢.

(٢) قال الإمام الشوكاني: "وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبدالله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح". فتح القدير: المجلد الثاني، ص٣.

أو ضلالهم، وهو يَحكُمُ فيهم لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولهذا فقد جاء في الآيات الأخيرة من السورة ذاتها ـ سورة المائدة ـ النص على مسألة الشرك هذه في العقيدة المسيحية، وذلك في يوم الحق أمام جلال الحق سبحانه؛ حيث يسأل عيسى ابن مريم، ويُجيبُ في ذلك الموقف المهيب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

نعم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، هذا ما يقوله المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، ولم يَقُلْ: فإنك أنت الغفور الرحيم، إشارة إلى أن الله تعالى في عزته مُستَغنٍ عن تعذيبهم، وأن حكمته تقتضي تعذيب من يستحق منهم بما يعلمه تعالى عنهم؛ قال ابن عطية: "فإنك أنت العزيز في قدرتك، الحكيم في أفعالك، لا تُعارَض على حال؛ فكأنه قال: إن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك، وإن يكن مغفورا لهم، فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله"(١).

(١) المحرر الوجيز: ٥/١١٤ ـ ١١٥، طبع دولة قطر. =

٤ ـ «نَظْمُ» الآية!

الأدلة التي تؤيد ما نقول في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ـ والتي يمكن للناظر في الآيات أن يقف عليها ـ كثيرة لا يَتَّسعُ لها المقام، ونكتفي بالإشارة إلى أمر يتعلق بـ«نظم الآية» نفسها، وأعني لزوم عدم التفريق بين كلماتها، أو أجزائها ومقاطعها؛ فقد ختمت هذه الآية (٦٧) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والقوم الكافرون هؤلاء هم الذين تتحدث عنهم الآيات؛ فالختام أو التذييل ـ كما يُدَّعَى ـ واضح في ضوء هذا الحديث، ومن ثَمَّ في ضوء ما قدمناه، ولكنه ليس كذلك في ضوء سبب النزول المُدَّعَى أو الذي جاء في رواية الكليني الأولى؛ لأن هذه الرواية أومأت إلى المنافقين أو المرتدين أو المكذبين، أو الذين لا أدري بماذا يُمكن أن يُدعَوا أو يُوصَفُوا؛ لأنهم الآن أو حين نزول الآيات لا يمكن أن يوصفوا بالقوم الكافرين، بل هم صحابةٌ كرامٌ مؤمنون، وغنيٌّ عن البيان أنهم قد بقوا كذلك طيلة حياة النبي ﷺ وبعد وفاته؛ وحين حاربوا المرتدين وثبتوا أركان الإسلام، وحين قاموا بنشر دين الله في الأرض، وانتقصوا من أطراف الإمبراطورية الرومانية، وأطفأوا نار المجوسية، وإلى أن لَقُوا وجه ربهم، ومَضَوا في التاريخ العربي

= وربما كان من المستغرب أن "يقيد" ابن عطية تفسيره للآية بهذا الشرط؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإن تغفر لهم" بتوبة كما غفرت لغيرهم، فإنك أنت العزيز في قدرتك..." إلخ.

الإسلامي والتاريخ الإنساني أعلاما مُضيئة "لم تَرَ الإنسانيةُ أكمل من أخلاقهم، ولا أرضى لله من دينهم"، كما قال شيخنا العلامة الداعية الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

٥ ـ تناقض وبهتان.. ومزاعم تحريف!

الرواية الكُلَينيةُ المذكورةُ تشير إلى أن «آية البلاغ» هذه نزلت على النبي ﷺ بعد رجوعه من حجة الوداع، وقد جاء النص على هذا في رواية أخرى للكليني، فقد روى بسنده في (باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين) من حديث طويل[٢] عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "فلما رجع رسول الله من حجة الوداع، نزل عليه جبرائيل عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، فنادى الناس فاجتمعوا (قلت: وهذا يدل على سرعة الاستجابة والتنفيذ من النبي الكريم)، وأمر بِسَمُرات فَقُمَّ شوكُهن (شجيرات نُزع شوكها) ـ وفي الاحتجاج: "وكان في الموضع سَلَمَاتٌ فأمَرَ رسول الله ﷺ أن يُقَم ما تحتهن"[٣]، ثم قال ﷺ: "يا أيها الناس مَنْ وَلِيُّكُم وأولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: الله ورسوله! (قلت: في رواية الكليني السابقة مَحلِّ البحث: لَم يَدْرِ القومُ ما هي الولاية)،

(١) راجع كتابنا: مصطفى السباعي، ص ٣٧٠، الطبعة الثانية.

(٢) والحديث فيه طويل كذلك، وإن كان لا يخفى ما فيه من خلط وعُجْمة وشعوبية وباطنية وتحريف لألفاظ القرآن ومعانيه.

(٣) الاحتجاج: الجزء الأول، ص٦٤؛ والرواية المطولة فيه تختلف عن رواية الكليني في مواطن كثيرة.

فقال: "من كنت مولاه فعَلِيٌّ مولاه.. اللهم وَالِ مَن وَالاه، وعَادِ مَن عاداه" ـ ثلاث مرات ـ فوقعتْ حَسَكَةُ النفاق في قلوب القوم، وقالوا: ما أنزل الله جل ذكره هذا على محمد قط، وما يريد إلا أن يَرفعَ بضَبْع ابن عمّه"؛ أي: عضده، والمعنى: أن يُعْلِيَ من شأنه(١).

ولا ندري ما الذي «كذَّب» فيه الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ في أنه لم ينزل عليه قط؟ هل قوله هو ﷺ: "يا أيها الناس من وليُّكم؟" أم الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التي لم يَجرِ لها ذكر في هذا الحديث الطويل المركَّب؟؛ علما بأن الصحابة المكذّبين هؤلاء أثبتوا هذه الآية وآية البلاغ ـ التي قالوا إنها نزلت بعدها ـ في المصحف الشريف الذي جمعه أبو بكر الصديق ﷺ، ثم نسخه عدة نسخ عثمان بن عفان ﷺ.

والإمامية يتهمون الصحابة ﷺ بأنهم «نقصوا» القرآن، ولا نعلم آية في القرآن «أولى» بالتنقيص ـ في المزاعم الإمامية ـ من آية الولاية هذه التي بنى عليها الإمامية عقيدة الولاية لعلي بن أبي طالب ﷺ، ومزاعم تكفير هؤلاء المؤمنين؛ وخاصة أن هذه الآية يزعم الكليني أن الصحابة ﷺ «رفضوها» أو «كذبوا» نزولها على محمد ﷺ حينما نزلت؛ أو كذَّبوه ﷺ في قوله أنها نزلت عليه في عليِّ بن أبي طالب ﷺ.

ونشير هنا إلى أن هذا كله يتعارض مع رواية أن رسول الله ﷺ

(١) الوافي: حديث ٧٧٧، مجلد٢، ص ٣١٧.

قال: "ليلة أُسرِيَ بي إلى السماء السابعة، سمعت نداءً من تحت العرش إن عليًّا آيةُ الهدى، وحبيبُ من يؤمن بي؛ بلِّغْ عليًّا" . . فلما نزل عن السماء نَسِيَ ذلك (!!)، فأنزل الله تعالى: (بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك في علي وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)، قال النوري الطبرسي: قوله: نَسِيَ؛ أي تَرَكَ (!!)، ولعله للخوف من المنافقين، كما صرح به في أخبار كثيرة"[1].

ومعلوم أن هذه الرواية لا تتضمن النص على «مسألة الولاية»؛ إذ لا خلاف على أن عليا ﷺ آية يُقتَدَى به في الهدى، وحبيب إلى قلوب جميع المؤمنين؛ ولهذا فإن من غير المفهوم أن «يَنسَى» أو «يترك» النبي بلاغ هذا للناس، ومن غير المفهوم كذلك أن «يدع» هذا «خوفا من المنافقين» الحقيقيين أو المزعومين!!

أما الزعم بأن كلمة "في عَليٍّ" جزء من الآية وليست تفسيرا لها، أو إدراجا فيها، فقد جاء النص عليه في روايات أخرى كثيرة، تزعم وقوع التحريف في القرآن، وقد مَثّل القُمِّي في مقدمة تفسيره لـ "ما هو مُحَرَّفٌ منه"؛ أي مِنَ القرآن الكريم بهذه الآية؛ وذَكَرَ أن نصها هو: (يا أيها الرسول بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك في علي وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[2]، ولهذه الآية عنده نظائر وأمثال.

---

(١) فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، للنوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، ص ١٥٨.

(٢) تفسير القمي: ٢٣/١.

أما النوري الطبرسي فقد ذكر روايات أخرى كثيرة بأسانيدَ عديدة لا يسعنا إلا أن نضرب عنها صفحا، وكلها تحتوي على هذه الزيادة، ولكن بعضها فيه ما نُنَزِّهُ عنه القلم؛ تنزيها لمقام النبي الأكرم ﷺ(١).

وعلى أية حال، فإن «رواية الإسراء» المشار إليها لم تُحدِّد متى قام النبي ﷺ بهذا البلاغ، وإذا كان ذلك قد تم عند منصرف النبي ﷺ من حجة الوداع؛ **فمعناه أن النبي ﷺ قد تأخر بهذا البلاغ ثلاثة عشر عاما.. فتأمل!!**

وجازى الله تعالى «النُّوري» هذا، وسائر الرواة الذين لا أقول: إنهم «يَكذِبُون» على الله تعالى فحسب، بل إنهم «يُكَذِّبُونَه» ﷻ أيضاً في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) راجع فصل الخطاب، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨. ونشير منها هنا إلى رواية ابن شهراشوب: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في علي فإن لم تفعل عذبتك عذابا شديدا)، ورواية الطبرسي المطولة عن محمد بن علي عليه السلام قال: "فلما بلغ غديرخم قبل الجحفة بثلاثة أميال: أتاه جبريل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهار والعصمة من الناس..." إلخ. الاحتجاج ١/٦٤.
وقد عبَّر عبدالحسين شرف الدين الموسوي عن قريب من هذا "الوعيد" أو سوء الأدب مع النبي ﷺ بقوله: "ألم يؤمر رسول الله بتبليغها [يعني ولاية عليٍّ]؟ ألم يُضيَّق عليه في ذلك بما يشبه التهديد حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾؟ المراجعات: المراجعة ١٢، ص ١٤٠.

٦ ـ مَنحًى آخر في تفسير الآية:

والذي نؤكده بعد هذا كله: أن تفسير هذه الآية ـ وسائر آيات الذكر الحكيم ـ يجب أن يتم في ضوء «طبيعة النص» القرآني أو «طبيعة بنائه» القائمة على «الوضوح المطلق» بين مقام الألوهية ومقام النبوة، وعلى أن كل مقام سِوَى مقام الله الخالق جل وعلا، داخل في باب العبودية لله تعالى والخضوع لربوبيته، وأن رسول ﷺ ـ الذي يتقدم الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين ـ في مقام التَّلَقِّي عن الله تعالى، والخضوع لأمره سبحانه؛ قال تعالى مخاطبا إياه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦]، وأنه «عبدٌ» اختاره الله سبحانه، وصنعه على عينه، ليُنزِلَ عليه آخر كتبه، وليُبَلِّغ خاتمةَ رسالاته.

وتأسيساً على هذا المنهج، وفي سياق هذا وذاك، أمره الله تعالى ببعض الأوامر، وحَذَّره من بعض الأعمال[١]، منها: هذا الأمر بتبليغ الرسالة، أو تبليغ ما أنزل إليه من ربه؛ وفحوى هذا الأمر أو مؤداه أنه مُبَلِّغٌ فعلا أو حقيقة، وأنه لم يمتنع عن هذا التبليغ، أو لم يتوقف فيه أو يتهاون، كسائر ما أُمِرَ به أو حُذِّر منه، وحتى يعلم كل قارىء للقرآن أن رسول الله ﷺ في موضع الخطاب والتكليف، والأمر والنهي، وأنه في مقام التلقي

---

(١) راجع على سبيل المثال: الآية (١) من سورة التحريم، والآية (٤٣) من سورة التوبة، والآية (٢١٣) من سورة الشعراء، والآية (١) من سورة الأحزاب، والآيتين (٦٧ ـ ٦٨) من سورة الأنفال، والآيتين (٩٤ ـ ٩٥) من سورة يونس، والآية (١٢) من سورة هود.

عن الله تعالى لا في موطن التَّقَوُّل عليه، وأنه في مقام العبودية لله تعالى، وليس له شيء من خصائص الألوهية أو الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ١].

والله تعالى يعلم أنه لن يَتَقَوَّل عليه، ولن يُشرِكَ به، ولن يُطِيعَ الكافرين والمنافقين صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه.

ولهذا فإن أي رواية تَشِي أو توحي بأن النبي ﷺ تهاون في التبليغ أو أرجأ أياما أو سنوات فهي باطلة مرفوضة؛ وبهذه المناسبة نحن أشد رفضا لإعلاء شأن الأئمة، أو إضفاء أي صفة من صفات الربوبية أو الألوهية عليهم، أو تلك التي تجعلهم فوق النبي ﷺ نفسه؛ إذ كان النبي ﷺ نفسه بشرا رسولا ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

يقول المحدث الحجة السيد عبدالله شبر (ت١٢٤٢هـ): "إن قياس الأئمة على أشخاصنا قياس مع الفارق، فإن عليهم مسحة من الصفات الإلهية"[(١)]، ويقول: "إن الأئمة لهم حالة

(١) مصابيح الأنوار: ج٢، ص١٧٣؛ مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٧م.

روحانية برزخية أولية تجري عليهم فيها صفات الربوبية"[1]، ونظائر هذا في كتب الإمامية كثير.

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق: ٣٩٧/٢، وأضاف: "وإليه أشير في الدعاء: لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك المخلصون"!، وإن للمرء أن يعجب من هذا الكلام، وأن يتساءل عن قيمته؟ لأن العبودية لله تعالى إذا كانت لا تمثل فرقا بين العابد والمعبود، أي بين المخلوق والخالق، فما تعريف (الفرق) إذن في اللغة والعقل؟!

رابعاً:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

بعد أن "صدع النبي بأمر الله تعالى"، كما نصت رواية الكليني الأولى، وأخبر القوم بولاية علي يوم غديرخم ـ أي في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ـ عندما كان راجعا إلى المدينة بعد حجة الوداع؛ نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ من الآية ٣ من سورة المائدة، ومعنى ذلك أن الدين كمل بولاية علي، وهذا ما نص عليه أو أدرجه بعض مفسري الإمامية في الآية المذكورة؛ فقرأ: (اليوم أكملت لكم دينكم ـ بولاية علي ـ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)[1].

(١) انظر تفسير العياشي ٢٩٣/١ وتفسيرالصافي للفيض الكاشاني ٥٥/٢.

ونورد حول هذا الملاحظات الآتية:

١ ـ معنى كمال الدين وتمام النعمة:

قلت: روايات أهل السنة لا تختلف في أن هذه الآية الكريمة ليس فيها النص على علي بن أبي طالب ﷺ، بل هذا عندهم معلوم من الدين بالضرورة؛ لأن القرآن الكريم لم يَجرِ تنقيصه أو تحريف آياته بأي صورة من الصور، ولكنها لا تختلف كذلك في أن هذه الآية الكريمة ـ أو هذا الجزء منها ـ نزل عشية عرفة في يوم الجمعة؛ أي في اليوم التاسع من ذي الحجة، كما جاء في روايات الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ـ ومن عدة طرق ـ قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله: "والصواب ـ الذي لا شك فيه ولا مرية ـ أنها نزلت يوم عرفة، وكان يوم جمعة؛ كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس، وسمرة بن جندب رضي الله عنهم.

وأرسله الشعبي وقتادة بن دعامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري رحمه الله"[1].

وعلى هذا فكمال الدين لا علاقة له بعلي بن أبي طالب ﷺ، ولا بغيره من الأعلام، ولكن كمال الدين بكمال

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٧.

أحكامه ـ وكلمة «الدين» في القرآن المجيد تعني النصوص أو الأحكام ـ فقد كملت أحكامه بشريعة الحج، أو بهذا الركن من أركان الإسلام، ولهذا فقد جاءت حجة وداع النبي ﷺ ـ التي دُعيت بحجة البلاغ كذلك؛ لأنه بلَّغ الناس شرع الله قولا وعملا ـ حافلةً بالأحكام والوصايا قولا وعملا أيضاً، وقد ورد فيها في صحيح مسلم حديث طويل سبقت الإشارةُ إليه بوصفه من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهم، علَّق عليها الإمام النووي: "وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا، وخرَّج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا؛ ولو تقصَّى لزيد على هذا القدر قريب منه..."[1].

وأما تمام النعمة ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقد أتم الله تعالى نعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين رضي الله عنهم بأن حَجُّوا لا يخالطهم المشركون، وكان رسول الله ﷺ قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميرًا على موسم الحج سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بثلاثين أو أربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس: يُؤَجِّلُ المشركين أربعةَ أشهر يَسيحُون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، وقرأها عليهم في منازلهم (أماكن نزولهم في الحج)، وأذَّن يوم النحر مع رهط من المسلمين، منهم أبو هريرة رضي الله عنه: "لا يَحُجَّنَّ بعد عامنا هذا مُشركٌ، ولا يَطُوفَنَّ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: حديث ١٢١٨، ص ٧٦٩ ـ ٧٧٩.

بالبيت عُريانٌ. . . "[1] ـ وكانوا لم يُمنعوا من ذلك بعد فتح مكة في العام الثامن ـ ثم قام النبي ﷺ بالحج في العام العاشر بعد أن مَنَعَ المشركون من الحج مع المسلمين، ولهذا قال بعض المفسرين: إتمام النعمة عليهم: إقرارهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عن البيت الحرام، حتى حَجَّهُ المسلمون لا يُخالِطُهم المشركون.

قلت: وربما كانت النعمة هذه ـ أو إتمامها ـ بظهور الإسلام وعلو شأن المسلمين، يقول الحافظ المفسر ابن كثير في تفسير الآية: "هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أَحَلَّه، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه. وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٩/٢؛ لقد أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن حُميد بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع، في رهط يؤذِّنون في الناس يوم النَّحر: لا يحجّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان.
قال حميد بن عبدالرحمن: ثم أردف النبي ﷺ عليا أن يؤذِّن بـ "براءة". قال أبوهريرة: "فأذَّن معنا عليٌّ في أهل منًى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان".
حديث رقم (٣٦٩) في البخاري، وبرقم (١٣٤٧) في مسلم؛ وانظر أحاديث البخاري رقم (٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧)

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي.. فلما أكمل لهم الدين تَمَّت عليهم النعمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: أي فَارْضَوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبَّه الله ورَضِيَه وبعثَ به أفضل الرسل الكرام، وأنزل له أشرف كتبه..."[1].

٢ ـ من رواية إمامية في حجة الوداع:

هذا، وهناك روايات إمامية أخرى تتفق مع رواية أهل السنة في أن هذه الآية نزلت يوم عرفة، وفي محاولات التوفيق ـ بينها وبين كون الدين قد تم بالصدع بولاية علي ـ كلام كثير، ومحاولة دائبة لترتيب الوقائع أو ترتيب الأحداث و«ردود الأفعال» في جميع المراحل؛ لأن «العرف الإمامي» يقتضي أن يكون نزول هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تاليا لنزول قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وأن يكون هذا كله بعد رجوعه ﷺ حجة الوداع على رواية الكليني سابقة الذكر، وهذا يتناقض بجِدة مع نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في يوم عرفة، كما دلَّت روايات أهل السنة، وبعض روايات الإمامية؛ بل يتناقض مع حقيقة إشهاد النبي ﷺ ربَّه على أمته ـ في أكثر من موطن ـ بتبليغ الرسالة: "ألا هل بلَّغت... اللهم اشهد.."، فكيف يؤمر ـ بعد ذاك

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٥.

المشهد العظيم في عرفة ـ أن يبلِّغ ولاية علي بعد الحج كما تزعم الرواية الإمامية بإصرار؟!

وأكتفى بهذا «المقطع» من مقدمات هذه الحجة، أو قبل أن يقف النبي ﷺ في الموقف، فإنه يومىء إلى ما بعده.

روى الطبرسي بسنده عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، ونقله الفيض الكاشاني قال: "فنادى مناد من رسول الله ﷺ في الناس إن رسول الله ﷺ يريد الحج، وأن يُعَلِّمَكم من ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم، ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه من غيره. فخرج رسول الله ﷺ وخرج معه الناس، وأصغوا إليه لينظروا ما يصنع فيصنعوا مثله.

فحج بهم وبلغ من حج مع رسول الله ﷺ من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون، على نحو عدد أصحاب موسى سبعين ألفا، أخذ عليهم ببيعة هارون فنكثوا واتبعوا العِجلَ والسامري.

وكذلك رسول الله ﷺ أخذ البيعة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة على عدد أصحاب موسى؛ فنكثوا البيعة واتبعوا العجل سنّة بسنّة، ومثلًا بمثل، واتصلت التلبية ما بين مكة والمدينة. . . "[1].

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: الجزء الأول، ص٦٣؛ وتفسير الصافي: ٥٣/٢؛ وانظر الصفحات ٥١ ـ ٥٥.

قلت: هل علم القارىء من أين جاءت تسمية الإمامية خليفةَ رسول الله ﷺ الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه بـ(العجل)، أو (عِجل هذه الأمة؟!). =

وقبل أن ندع هذا، نقول: إن هذه الرواية تضمنت الخطبة التي ألقاها النبي ﷺ في «غديرخم» فوق أحجار نُصِبَت كهيئة المنبر، قام عليها النبي ﷺ، وقد بلغت هذه الخطبة إحدى عشرة صفحة[1]؛ أي أكثر من ٢٨٠٠ كلمة. ولا يقع الناظر فيها على ما يشبه كلام النبي ﷺ ـ الذي أوتي جوامع الكلم ـ في قليل أو كثير، وفيها من أساليب الإنشاء ما جد بعد عصر النبوة بزمن طويل، وهي لا تخرج من حيث المضامين عن كونها من الكلام المصنوع، بل نعتقد أن غالب ما في هذه الخطبة قد تم

= راجع الحديث (٢٢) من كتابنا: السنة النبوية وعلومها بين أهل السنة والشيعة الإمامية.

(١) الاحتجاج: من ٦٤ ـ ٧٦؛ وتفسيرالصافي: من ٥٦ ـ ٦٦؛ وانظر الصفحات: ٦٧ ـ ٧١.

ولا ندري على أي رواية من الروايات الإسرائيلية عوَّل الطبرسي في حكاية السبعين ألفا، ومزاعم البيعة لهارون؟ وهل تم الربط بين هذا وبين أتباع بني إسرائيل للسامري وعبادتهم للعجل في هذه الروايات؟ أم أن هذا الربط من عمل الطبرسي وضربائه؟

علماً بأن الحديث عن اتباع السامري العجل، لم تكن ـ بنص القرآن ـ بعد أن أخذ موسى على بني إسرائيل البيعة لهارون أو بعد أن نكثوا البيعة!! بل نص القرآن الكريم على خلاف ادعاء الطبرسي وروايته.. انظر التدليل على ذلك الآيتين (٩٢ ـ ٩٣) من البقرة، والآيات (١٤٨ ـ ١٥٢) من الأعراف، والآيات (٨٣ ـ ٩٨) من سورة طه.

ولا تقف عند القرآن فقط، بل قارنه بما ورد في التوراة نفسها: سفر الخروج (السفر الثاني من أسفار العهد القديم) الإصحاح (٣٢).. لتعلم لم نرجح أن ما فعله الطبرسي وأضرابه ليس له أصل لا من القرآن ولا من التوراة حتى!!

وضعه في عصر الكليني، أو بعد عصر التدوين الإمامي، والله تعالى أعلم.

٣ ـ الوحي يضع الآية في سياق الأحكام:

يضاف إلى ما سبق بيانه أن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ قرأه النبي ﷺ جزءا من الآية الثالثة من سورة المائدة، وهو كذلك في المصاحف، وغني عن البيان أن النبي ﷺ لم يقرأ إلا بما نزل به الوحي، وعلى الوجه الذي نزل به عليه، أو أمره أن يضعه موضعه مما نزل عليه.

وهذا القول من كلامه تعالى بالقَدرِ الذي نزل به جبريل يوم عرفة، وضعه الوحي في سياق الآية الثالثة من سورة المائدة، التي تتحدث عن أحكام محددة متعلقة بالأطعمة، قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ و﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هكذا جمع الوحيُّ بين هذين اليومين في آية واحدة، بل هما يوم واحد، وهذا وجه من وجوه ضَمِّ هذا الذي نزل به

جبريل يوم عرفة إلى هذه الآية؛ فقد ظهر الإسلام في جزيرة العرب، وعلى مشركي مكة وقريش، فيَئِسَ الذين كفروا من دينكم أن يُبطِلوه، أو يُنقِصُوه، وقد كتب الله تعالى له الكمال، وحكم ببقائه إلى يوم الدين.

وقد جاء الحديث عن هذا وذاك في سياق تفصيل ما استثنته الآية الأولى من السورة من حِلِّ بهيمة الأنعام ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، قال تعالى في مستهل هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].

وفي هذا أبلغ دلالة وأوضح بيان على أن «الدين» كلٌّ لا يتجزأ: عقيدة وشريعة؛ وشعائر وعبادات، وسائر ما يختص بالحلال والحرام، حتى الذبائح والمأكولات..

لِنَقُل: إن عبادات الإسلام كمُلَت بشريعة الحج أو بعبادة الحج، وإن أحكام الطعام فيه كملت بهذه الأحكام، فهذا أيضاً من تمام النعمة، وهي ألّا نأكل إلا الطيبات التي لم تخالطها نجاسة حِسِّيةٌ أو معنوية، ولا شأن لهذا بعلي بن أبي طالب ﷺ ولا بسواه من سائر المؤمنين ﷺ!!

بل لا يُعقل الحديث عن علي بن أبي طالب ﷺ في سياق المحرمات من المأكولات أو الذبائح، وبخاصة أن الآية الكريمة، بعد أن نصت على يأس الذين كفروا، وكمال الدين، وإتمام النعمة، استثنت حالة الاضطرار؛ أي أنها استأنفت الحديث عن تلك المحرمات، باستثنائها حالة الاضطرار؛ حتى

ليبدو للقارئ أن استبعاد أن يكون أحدٌ مرادا بهذه الآية أو هذا النّص، قد تكرر أو أُكد مرتين.. والله تعالى أعلم.

نقطتان في التعقيب على الآيتين:

وأخيرا.. لا يدري المرء كيف يُؤمر النبي ﷺ بإبلاغ ما أُنزل إليه من ربه بعد رجوعه من الحج مع رهط من الصحابة رضي الله عنهم الذين خرجوا معه من المدينة فقط..

فإن كان الأمر متعلقا بـ«الوصي» و«الولي» و«الخلافة» و«الإمامة» ولا يؤمر به في ذاك الموقف العظيم، حيث يُمكنه إبلاغ كافة المسلمين الذين قُدِّرَ عددهم بسبعين ألفا أو بمائة ألف بما أنزل عليه من ربه!!

فإن كان قد «أُمِرَ» بذلك في «الموقف» فكيف يَدَعُهُ إلى «غدير خم» ومعه الرهط الذين خرجوا معه من المدينة فقط؛ آخذين في الاعتبار أن هؤلاء الرهط ـ كما يروي الإمامية ـ هم أصحاب الشقاق والنفاق الذين كان يخشاهم النبي ﷺ إن هو بلغ ما أُنزِلَ إليه من ربه في علي بن أبي طالب؟!!

كما أن التعبير القرآني ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يَدُلُّ على جُملة ما ذهبنا إليه، وبخاصة ما قدمناه عن سياق آية التبليغ أو البلاغ؛ لأن النبي ﷺ بَلَّغَ ما أنزل عليه من الآيات المتصلة بأهل الكتاب وقرأها عليهم، والأمر ليس كذلك إن قلنا إن المراد بالآية: ما أنزل إليه في علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه لم يقرأ في هذا شيئا من التنزيل، وربما لو كان التعبير بالوحي لأمكن التَّعَلُّق به بوجه من الوجوه.

خامساً:

الإمامة وحديث غدير خُـم

١ ـ سبب هذا الحديث:

وعلينا أن نَذكُرَ بعد ذلك أن حديث «غديرخم»: "مَن كُنتُ مَولاهُ فَعَليٌّ مَولاهُ" لا صِلةَ له بمسألة «الخلافة والإمامة» أو «الولي والوصي»؛ لأن النبي ﷺ إنما قاله دفاعا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتبرئةً له مما قاله فيه بعضُ من كانوا معه باليمن؛ ذلك أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ وفي رواية أخرى خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه[1] ـ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن قبل أن يخرج رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع، وحين تَعَجَّلَ علي بن أبي طالب ليلقى رسول الله ﷺ

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي: ص ٥٠٢، ط دار الأعلام، عمان، ١٤٢٣هـ.

بمكة؛ استَخلَفَ على من كان معه رَجُلا من أصحابه، وقد وقع ـ أولا ـ بين علي ﷺ وبعض هؤلاء الجُند جفوة[١]؛ بل أظهر الجيشُ شكواه لَمَّا منعهم من استعمال إبل الصدقة.

كما أنه ـ ثانياً ـ حين خَرَجَ لاستقبالهم يوم لحقوا به في مكة؛ انتزع الحُلَلَ التي كساهم إياها الرجلُ الذي استخلفه عليهم، فخطب النبي ﷺ وبَرَّأ ساحةَ علي بن أبي طالب ورَفَعَ قدره ﷺ.

روى محمد بن إسحاق عن أبي سعيد ﷺ قال: "اشتكى الناس عليا، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبا، فسمعته يقول: "أيها الناس لا تشكوا عليا، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، مِن أن يُشكَى..."، رواه الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الفضيل بن دكين، ثنا ابن أبي غنيه،

---

(١) انظر خبر وَصِيفةٍ كانت في السَّبي اصطفاها علي ﷺ لنفسه عند ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/١٠٤؛ والعقاد في عبقرية علي: ص١٢٩ ـ ١٣٠، منشورات المكتبة العصرية، بلبنان.

وفي رواية قال النبي ﷺ لأحدهم: أتبغض عليًّا؟ قال: نعم! قال: "لا تبغضه، فإن له في الخُمُس أكثر من ذلك"؛ أي أكثر من السبية التي اصطفاها لنفسه..

وانظر في العقاد كذلك شكاية سعد بن مالك بن الشهيد ما لقيه وصحبه من عليٍّ في اليمن! قال النبي ﷺ: "يا سعد بعض قولك لأخيك علي، فوالله إنه لجيش في سبيل الله"، عبقرية الإمام: ص ١٣٠.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/٣٥٠، وفيه "لأجيَشُ".

عن الحكم بن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن بريدة قال: "غزوت مع عليٍّ اليمن، فرأيتُ منه جَفوَةً، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرت عليًّا فتَنَقَّصتُهُ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يَتَغَيَّر!!

فقال ﷺ: "يا بريدة ألستُ أَولَى بالمؤمنين من أنفسهم"؟!

قلتُ: بَلَى يا رسول الله!

قال ﷺ: "من كنت مولاه فعلي مولاه".

وكذا رواه النسائي عن أبي داود الحراني، عن أبي نعيم الفضيل بن دكين، عن عبدالملك بن أبي غنيه بإسناده، نحوه. قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، رجاله كلهم ثقات.

وروى الإمام البخاري عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ عليا إلى خالد بن الوليد ليقبض الخُمُس، وكنت أبغضُ عليا، وقد اغتسلْ.. فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا؟!

فلما قدمنا على النبي ﷺ ذكرتُ ذلك له، فقال: يا بريدة.. أتبغضُ عليا؟! فقلت: نعم.

قال: لا تَبغَضهُ، فإن له في الخُمُس أكثر من ذلك.." الحديث[1].

(١) انظر صحيح البخاري: برقم (٤٣٥٠)، ص ٨٢١ ـ ٨٢٢. =

وقد عقد الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية فصلا لخطبته ﷺ بـ «غديرخم» قريب من الجُحفة بين مكة والمدينة، والتي "بين فيها فَضلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبراءة عِرضِه مما كان تَكَلَّم فيه بعضُ من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صَدَرَ منه رضي الله عنه إليهم مِنَ المُعَدِّلة التي ظنها بعضهم جورا وتضييقا وبُخلا، والصواب كان معه في ذلك..."، ثم يُعلِّق على ذلك بالقول: "ولهذا لما تفرغ عليه السلام من بيان المناسك، ورجع إلى المدينة؛ بين ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عامئذ [العام العاشر]، وكان يوم الأحد بغديرخم تحت شجرة هناك، فبَيَّن فيها أشياء، وذكر من فضل عليٍّ وأمانته وعدله وقُربهِ إليه، ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس فيه.

ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة في ذلك، ونُبَيِّن ما فيها من صحيح وضعيف بحول الله وقوته وعونه.."[1] إلى آخر ما أورده ابن كثير في تاريخه.

= قوله: "وقد اغتسل"، فيه إشارة إلى مواقعة علي للسبية كمِلكِ يَمين؛ وقول النبي ﷺ بأن لعلي في الخمس "أكثر من ذلك" أي أكثر من تلك السبية، التي كانت ضمن الخمس المستلم من خالد.

(١) البداية والنهاية للإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ): الجزء الخامس، ص (٢١٥ ـ ٢٢١)، والصفحات (١٠٤ ـ ١٠٧)؛ وانظر كذلك الصفحات (٢٥٢ ـ ٢٦٢)، ط المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.
وانظر: جامع الترمذي: الحديث (٣٧١٢، ٣٧١٣: ص٨١٢)، تحقيق: عادل مرشد، دار الأعلام، عمان، ١٤٢٤هـ.

٢ ـ حديث الغدير لا صلة له بالإمامة والخلافة:

قلت: وفحوى هذا أن النبي ﷺ قصد بهذا الحديث أولئك الذين انطلقوا مع علي وخالد رضي الله عنهما من المدينة إلى اليمن، والعائدين معه الآن إلى المدينة بعد فراغهم جميعا من أعمال الحج.

ولو كان لهذا الحديث أدنى صلة بـ«الخلافة والإمامة» أو «الولاية العامّة» لقاله ﷺ أو بلَّغه في مكة أيام الحج؛ إذ خَطَبَ في المسلمين أكثر من مرّة، وبخاصة يوم عرفة؛ حيث كانت جموعهم التي يجب أن يعلمهم الرسول ﷺ باستخلاف علي رضي الله عنه أو بولايته وإمامته؛ بل إن الذين جاؤوا إلى الحج من أنحاء الجزيرة أو من خارج المدينة أولى بهذا الحديث من أهل المدينة أجمعين، من كان منهم مع خالد وعلي، ومن انطلق مع النبي ﷺ بل إن من الراجح أن النبي ﷺ لم يُعرِّج على غديرخُم ليقول ما قال، ولم يدعه حتى يصل إلى المدينة لولا ما كان بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه في اليمن.

٣ ـ تفسير الحسن المثنى رضي الله عنه للحديث:

قلت: وهذا الذي دَلَّت عليه هذه الوقائع أو الأحداث، والذي يمكن سلكه فيما يُدعى أسباب ورود الحديث، هو ما فَسَّرَه وصرح به الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه، فقد قيل له: ألم يَقُلْ رسول الله: "من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه"؟

فقال: بلى؛ ولكن والله لو كان يَعني رسولُ الله الإمارةَ

والسلطانَ، والقيامَ على أمر الناس؛ لأفصح لهم به ـ وزاد في رواية: كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت ـ فإن رسول الله كان أنصح للمسلمين؛

ولقال لهم: يا أيها الناس.. هذا وَليُّ أمركم، والقائمُ عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا.

والله لئن كان الله ورسوله اختار عليا لهذا الأمر، وجعله القائم للمسلمين من بعده، ثم ترك عليٌّ أمر الله ورسوله، لكان عليٌّ أول مَن تَرَكَ أمرَ الله ورسوله...»[1].

وفحوى هذا الذي قاله الحسن المثنى نقطتان:

الأولى: أن الأمر لو كان متعلقا بالإمارة والسلطان، لبَيَّنهُ النبي ﷺ وأوضحه بأجلى العبارات، وهو الذي أُنيطَ به بيان القرآن ومراد الله فيه، فكيف لا يُفصح عما يريده هو أو عمَّا أُمِرَ بتبليغه؟!

الثانية: أن عليا نفسه رضي الله عنه لا يمكن له أن يتجاوز أو يترك القيام بما عهد إليه النبي ﷺ أو كلفه القيام به؛ لأن هذا الترك مما لا يفعله ولا يليق به ولو كان وحيدا في الأمة؛ وغني عن البيان أنه نهض للدفاع عن بيعة جمهور المسلمين له بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما خبر «الجمل» و«صفين» عن أحد ببعيد.

---

(١) رواه ابن عساكر عن الحافظ البيهقي، انظر: تاريخ دمشق الكبير: ج١٥، ص٥٦ و٦٠ ـ ٦١، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ٢٠٠١م.

٤ ـ موقف علي بن أبي طالب ﷺ من الحديث:

غني عن البيان أن ما قاله الحسن المثنى (والملقب بالحسن الرضى أيضاً) هو ما دَلَّ عليه فعل علي ﷺ، وما قاله وكتب به كذلك، وهو كثير، نشير منه إلى ما ورد في «نهج البلاغة» وحده، حيث يقول علي بن أبي طالب في حديث له لطلحة والزبير ﷺ: "والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها. . . " إلخ.

ووصف بيعته بالخلافة في أكثر من مناسبة، بأنها كانت استجابة لطلب المسلمين وإلحاحهم عليه في قبولها، قال ﷺ في بعض هذه المقالات: "وبسطتم يدي فَكَفَفتُها، ومَدَدتُمُوها فقَبَضتُها، ثم تداكَكْتُم عليَّ تَدَاكَّ الإبل الهيم على حِياضِها يوم وُرُودِها. . . " إلخ.

ولا يرتاب عاقل في أنه ﷺ لو كان «مُعَيَّنا» أو «مُسَمًّى» للخلافة بقرآن أو حديث، لما رَغِبَ عنها، أو كَفَّ يَدَهُ حين مَدَّها المسلون؛ بل ربما كان عاتبهم أو أخذ عليهم أنهم تأخروا في ذلك إلى ما بعد مقتل الخليفة الثالث ﷺ!!

أما أن يكون قد فعل ذلك من باب «الزهد» وذهاب الرغبة في أمر كان له، ثم صُرف عنه طيلة عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة؛ لأنه صُرف عنه وتأخر وصوله إليه، فهذا مما لا يليق به، ولا يتصور وقوعه منه ﷺ؛ لأن من «يعيّنه» باسمه رسول الله ﷺ لأمر فإنه لا يَعتَذِرُ عنه ولا يتردد فيه بحال من

الأحوال؛ وبخاصة إذا كان في مثل مقام علي في الشجاعة والفصاحة والبلاغة، والعلم والقضاء، والصدق والصراحة إلى يوم الدين.

وجاء في كتاب له أيضاً إلى طلحة والزبير ﷺ: "أما بعد، فقد عَلِمتُما ـ وإن كتمتما ـ أني لم أُرِدِ الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني..."[(١)].

وقال في خطبة له لما أُريدَ على البيعة بعد استشهاد عثمان ﷺ: "دعوني والتمسوا غيري، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم؛ وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا..."[(٢)].

ويتضح من هذا أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان يُشير إلى ما كان عليه أيام إخوانه الخلفاء الراشدين المهديين (أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ)، كما كان يتحدث بوضوح وأريحية عن المَحَلِّ الأشبه بطبعهِ والأوفق له في باب السياسة والحكم؛ ولا ريب في أن رسول الله ﷺ كان يعلم من علي ما يعلمه علي ﷺ من نفسه؛ ولا يمكن لحديث «غديرخم» أن يخالف هذا وذاك.

---

(١) انظر هذه النصوص الثلاثة في (نهج البلاغة) على هذا الترتيب: الفقرة: ٢٠٣، ص٤٠٤ ـ ٤٠٥، فقرة: ٢٢٧، ص٤٤٧؛ فقرة: ٢٩٣، ص٥٩١ ـ ٥٩٢؛ ط دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) المصدر السابق: الخطبة ٩٠، ص ١٥٣.

٥ ـ علي ﷺ يُقرِّر أن الخلافة بالشورى:

وأخيرًا، يقرر علي بن أبي طالب ﷺ بأنصع عبارة أن الإمامة والخلافة إنما هي بالشورى وليست بالنص والتعيين، سواء أكان تلميحا أم تصريحا؛ فقال ﷺ في كتاب له إلى معاوية ﷺ:

"إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بايعوهم عليه، فلم يَكُن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدَّ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما، كان ذلك لله رِضًى، فإن خَرَجَ من أمرهم خارج بطعن أو بدعة، ردوه إلى ما خرج منه؛ فإن أَبَى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تَوَلَّى..."[(١)].

نعم.. لقد بايعه المسلمون، كما بايعوا من قبله أبابكر وعمر وعثمان، فصار خليفة وإماما لهم، ولقد اختاروه، فلم يكن له أن يَرُدَّ اختيارهم، ولعل فيما قاله النبي ﷺ بحقه وما دافع به عنه، يوم غديرخم وفي مواطن أخرى، وما آثره به، إشارة وتمهيد يوطئ له أمر الخلافة والإمامة إذا لزم الأمر أو حين يأتي الزمان الملائم، وينهض لمبايعته المسلمون، وقد حصل.

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق: فقرة ٢٤٥، ص٤٦٦.

سادساً:

بين السياق وإجماع أهل التفسير

ولا بأس بأن نختم هذه الملاحظات بتفسير للآية الكريمة التي استهل بها الكُليني حديثه، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذكره بعض علماء الإمامية، وهو وإن كان لا يخرج في فحواه عما نقله الفيض الكاشاني؛ فإن استشهاده في هذا التفسير بكل من العلامة الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير، والمفسر الأديب الداعية الناقد سيد قطب، بل تعريضه الشديد بهما، بحُجَّةِ تعويلهما على السياق كسائر المفسرين، هو الذي حملنا على نقل كلامه في هذا الموطن، وبخاصة أننا وجدنا أنفسنا ـ مصادفة ـ قد استشهدنا بهما في هذه الملاحظات.

قال الشيخ محمد هادي معرفة:

"وهذا ابن مخلوف الثعالبي في آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، نراه يحاول امتهان نزولها بشأن علي عليه السلام حينما

أعطى خاتمه للفقير وهو في حالة الركوع من الصلاة، فكانت فضيلة شامخة لمولانا أمير المؤمنين، وقد أجمع عليه المفسرون وأهل الحديث وتواترت الروايات بذلك من الفريقين"[١].

"قال الثعالبي: والزكاة في الآية عام تشمل المفروضة والتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر، ثم وصفهم سبحانه بتكثير الركوع، وخص بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة.

قال: هذا هو الصحيح في تأويل الآية، ولكن اتفق مع ذلك أن علي بن أبي طالب أعطى خاتمه وهو راكع. قال السدي: وإن اتفق ذلك لعلي فالآية عامة[٢].

وقد علق الشيخ «معرفة» على هذا النقل والاستشهاد الفريد بقوله: "هكذا يخرج من تفسير الآية بهذا الاختصار المبتور! نعم.. هكذا استحوذ عليهم شيطانُ الحِقدِ فأنساهم ذكر الله!!".

ثم أضاف: "وهذا عبدالله بن الزبير يحاول إثبات كون سورة الإنسان مكية، لماذا؟ لأنه كان يرغمه وجود آيات في القرآن ناصة على فضائل آل الرسول ﷺ؛ إنه كان يحمل الضغينة لآل البيت حقدا وحسدا ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

فقد أسقط ذكر النبي من خطبة الجمعة معتذرا: أني كلما

---

(١) قارن هذا الإجماع والتواتر بما نقلناه قبل قليل!

(٢) وأحال على تفسير الثعالبي: ج١، ص٤٧١.

رأيت بني هاشم إذا جاء ذكر النبي اشرأبوا وأشرقت ألوانهم وطالت رقابهم، والله ما كنت لآتي لهم سرورا وأنا أقدر عليه. . . " .

" . . . وهكذا سار من ورائه [يعني من وراء ابن الزبير] بعض مبتذلة أهل التفسير كابن كثير، وأخيرا سيد قطب، مستشهدين بالسياق، تاركين وراءهم إجماع أئمة التفسير "[1].

قلتُ: هل علم القارىء مَنْ أئمة التفسير هؤلاء الذين ترك مبتذلة أهل التفسير إجماعَهم، آخذين بالسياق القرآني ونظم الآيات، وحتى استحقوا بذلك الترك وهذا الأخذ الوصفَ المذكور؟!

أعني "مبتذلة أهل التفسير" . . إن إجماع أئمة التفسير هؤلاء هو الأصل في تفسير القرآن عند الشيخ «معرفة»، أما الأخذ في هذا التفسير بـ«سياق الآيات» و«نظم القرآن» فهو منهج مبتذلة أهل التفسير كابن كثير من القُدَامى، وسيد قطب من المعاصرين!!

أما الأخبار الموضوعة والأخطاء العلمية، وغير ذلك من التجاوز والإيهام في هذا الذي يقوله الشيخ «معرفة»، فإن بيانه

(١) صيانة القرآن من التحريف ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦. أما ما نسبه إلى عبدالله بن الزبير(رضي الله عنهما) فإنه يفتقر إلى التوثيق الذي يعول عليه؛ وإن كان الأمر في هذا السياق، لا يعدو أن يكون من باب الإقحام والإثارة والتوظيف!!وربما كان كذلك من باب البهتان والتطاول.

يطول، وتكفينا مفردات المؤلف ولُغَتُهُ العالية التي حكمت كتابه من أوله إلى آخره، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد وصفنا كتابه الموسوم: «صيانة القرآن من التحريف» في مناسبة سابقة بأنه يدور حول «صيانة القائلين بتحريف القرآن عن الكذب»!![1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر كتابنا: علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه.

سابعاً:

حول بعض أسباب النزول في كتب الإمامية

وبعد؛ فإنه على الرغم من رغبتنا الشديدة في الإيجاز والإيماء؛ فلا بد من تعليق أخير على مسألة أسباب النزول التي تتردد في كتب الإمامية، والتي تثير مشكلات كثيرة في التفسير وعلوم القرآن وتاريخ القرآن ـ أو تاريخ توثيقه ـ، وبخاصة حين يصل الأمر إلى هذا الحد الذي أفصح عنه الشيخ «معرفة».

إن كثيرا من أسباب النزول هذه قد يكون مدعاة للإشفاق على قائله أو رواته؛ أما القرآن فإنه محفوظ بالتَّكَفُّل الإلهي، ولو كَرِهَ المفترون؛ وذلك لشدة دلالته على الجهل بمعاني القرآن، بل بمفرداته وبمعاني العربية بوجه عام أو من الأساس.

ونود هنا أن نقف عند نقطتين:

النقطة الأولى:

أن سبب النزول المزعوم إذا كان متصلا بآيات من سورة غير السورة التي يشرحها المفسر، فإنه يجري الاستدلال به على أن "تأليف القرآن على خلاف ما أنزله الله"، على حد قول علي بن إبراهيم القُمِّي، الذي يُعَدُّ تفسيره مع تفسير العَيَّاشي[1] تفسيرا بالمأثور، أي تفسيرا مأثورا عن أئمة الإمامية، ولا أدري: هل يريد بهذا التأليف: ترتيب السور، أم ترتيب ونظم الآيات؟ والراجح أنه يعني الثاني.

وكأن القوم يستدلّون بأسباب النزول الواهية التي تُفسِدُ النظم، على اعتبار أن النظم الصحيح فاسد.. إن هذا لشيء عجيب!!

قال القُمِّي في في سياق تفسيره لآيات غزوة أحد من سورة آل عمران:

"وكان حنظلة بن أبي عامر[2]: رجل من الخزرج قد تزوج في تلك الليلة التي كان صبيحتها حرب أحد، بنت عبدالله بن أبي سلول [هكذا]، ودخل بها في تلك الليلة، واستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عندها، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا

(١) محمد بن مسعود، ت ٣٢٠هـ.

(٢) المعروف بحنظلة الغسيل.

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢]، فأَذِنَ له رسول الله ﷺ، فهذه الآية في سورة النور، وأخبار أحد في سورة آل عمران، فهذا دليل على أن التأليف على خلاف ما أنزله الله، فدخل حنظلةُ بأهله وواقع عليها[١]، فأصبح وخرجَ وهو جُنُب، فحضر القتال، فبعث[٢] امرأتُهُ إلى أربعة نَفَرٍ من الأنصار لَما أرادَ حنظلةُ أن يخرج من عندها، وأشهدت عليه أنه قد واقعها.

فقيل لها: لِمَ فعلتِ ذلك؟

قالت: رأيتُ في هذه الليلة في نومي كأن السماء قد انفرجت فوقع فيها حنظلة، ثم انظمت[٣]، فعلمتُ أنها الشهادة، فكرهت أن لا أشهد عليه، فحملت منه..."[٤].

قلت: سبب النزول المذكور: مفرداتُ الآية ومعناها وسياقها، كلُّ ذلك ينفيه ويَدحَضُه، ولَم أقف له على أثرٍ فيما تحت يَدَي من مصادر؛ كان الأولى بي ألا أبحثَ في أي مصدر، ولا صِلَةَ بينه وبين الآية الكريمة سوى «كلمة الإذن»

(١) ما هذه اللغة العالية؟
(٢) قلت: أي فبعثت.
(٣) قلت: أي انضمت.
(٤) تفسير القمي: ١/١٢٥.

أو «موضوع الإذن»، حتى لكأن الآية الكريمة نزلت في جميع المواقف التي كان فيها إذن أو استئذان؛ فانظر هذا الفهم السديد في التفسير وأسباب النزول!!

قال تعالى في الآية (٦٣) التالية للآية المذكورة: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾، أما الصياغة الركيكة للقصة وإفساد مغزاها أو دلالتها الإيمانية والجهادية، بما زيد عليها أو أضيف إليها، فهذا كله مما لا يحتاج إلى بيان[1].

أما النقطة الثانية:

فهي أن سائر أسباب النزول، أو أسباب النزول التي تذكر

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وشد حنظلة الغسيل، وهو حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان، فلما تَمكَّن منه، حمل على حنظلة: شدادُ بن الأسود فقتله؛ وكان جُنبا، فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته، فقام من فوره إلى الجهاد، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه "أن الملائكة تغسله"، ثم قال: "سلوا أهله: ما شأنه؟"، فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر؟. زاد المعاد: ٢٠٠/٣. وقد علق محققا الكتاب على هذا الحديث بالقول: "ذكره ابن هشام (٧٥/٢) بلا سند، وأخرجه الحاكم (٢٠٥/٣، ٢٠٤)، والبيهقي (١٥/٤)، والسراج من طريق ابن اسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عن جده. وسنده جيد، وله شاهد من حديث ابن عباس عن الطبراني بسند حسن، كما قال الهيثمي في المجمع (٢٣/٣): "وفي الباب شاهد مرسل قوي عن الحسن البصري" عند ابن سعد (٩١/٣).

في السياق الواحد، والتي حفلت بها كتب التفسير، كثيرا ما تقطع سياق الآيات وتهدم نظم القرآن، كما رأينا قبل قليل في آيتي سورة المائدة السابقتين؛ ونذكر هنا أن خطبة «غديرخم» التي نسبها الطبرسي، وهو من رجال القرن السادس، إلى النبي ﷺ، والتي أشرنا إليها في هذا البحث، ضَمَّنَها سبب نزول لهاتين الآيتين على لسان النبي ﷺ نفسه، وقد لا يكون لهذا نظير في أسباب النزول.

وقد جاء في مستهل هذه الخطبة أو الرواية قوله:

"الحمد لله الذي علا في توحده، ودنا في تفرده (!)، وجلّ في سلطانه، وعظم في أركانه، وأحاط بكل شيء علما وهو في مكانه (!) وقهر جميع الخلق بقدرته وبرهانه..."..

ثم جاء فيها قوله: "أحمده تعالى على السراء والضراء، وأومن به وبملائكته وكتبه ورسله، أسمع أمره وأطيع، وأبادر إلى كل ما يرضاه وأستسلم لقضائه رغبة في طاعته وخوفا من عقوبته؛ لأنه الله الذي لا يُؤمَنُ مَكرُه، ولا يُخافُ جَورُه، وأُقِرُّ له على نفسي بالعبودية، وأشهد له بالربوبية، وأؤدي ما أوحي إليَّ حذرا من أن لا أفعل فتَحِلَّ بي منه قارعةٌ لا يَدفَعُها عني أحدٌ وإن عَظُمَت حيلته؛ لا إله إلا هو؛ لأنه قد أعلمني أني إن لم أُبَلِّغ ما أُنزِلَ إليَّ فما بلغتُ رسالته، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحى إليَّ: (بسم الله الرحمن الرحيم. يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في عليٍّ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

معاشرَ الناس ما قصرتُ في تبليغ ما أَنزَلَ الله تعالى إليّ، وأنا مُبَيِّنٌ لكم سبب نزول هذه الآية:

إن جبرئيل عليه السلام هبط إليّ مرارا ثلاثا يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد فأُعلِمَ كلَّ أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب عليه السلام، أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي، الذي مَحَلُّهُ مني محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، وهو وَلِيُّكم من بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى عليَّ في ذلك آية من كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾، وعلي بن أبي طالب عليه السلام أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع، يريد الله عز وجل في كل حال.

وسألت جبرئيل أن يَستَعفِيَ لي عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعِلمِي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وإدغال الآثمين وخَتَلِ المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم؛ وكثرة أذاهم لي في غَيرِ مرَّة حتى سَمَّوني أُذُنًا، وزعموا أني كذلك لكثرةِ ملازمته إياي وإقبالي عليه، حتى أنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن على الذين يزعمون أنه أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)[1]، ولو شئت أن أُسَمِّي بأسمائهم لسَمَّيتُ،

(١) راجع الآية (٦١) من سورة التوبة.

وأن أومي إليهم بأعيانهم لأومأتُ، وأن أدل عليهم لدللت، ولكني والله في أمورهم قد تَكَرَّمتُ، وكل ذلك لا يُرضِي الله مني إلا أن أُبَلِّغَ ما أنزل إليَّ، ثم تلا (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في علي وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

فاعلموا معاشر الناس، أن الله قد نَصَّبَه لكم وليًّا وإماما، مُفتَرِضًا طاعتَه على المهاجرين والأنصار وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر، وعلى الأعجمي والعربي والحُرِّ والمملوك، والصغير والكبير، وعلى الأبيض والأسود، وعلى كل مُوَحِّدٍ، مَاضٍ حُكمُهُ، جائزٌ قوله، نافذ أمره، مَلعُونٌ من خالفه، ومرحومٌ من تبعه، مؤمنٌ من صَدَّقَهُ؛ فقد غفر الله له ولمن سمع منه وأطاع له. . . "(١)

(١) الاحتجاج: ٦٥/١ ـ ٦٧؛ ونضيف بهذه المناسبة طرفا من الصفحتين الثالثة والرابعة من هذه الخطبة المطولة، التي تبلغ إحدى عشرة صفحة أو تزيد، كما أشرنا البحث:
قال: "معاشر الناس ما من عِلم إلا وقد أحصاه الله فيَّ، وكل عِلم عُلِّمتُ فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من عِلمٍ إلا عَلَّمتُهُ عَليًّا، وهو الإمام المبين..
. . . ثم إنه أول من آمن بالله ورسوله، وهو الذي فدى رسوله بنفسه، وهو الذي كان مع رسول الله ولا أحد يَعبدالله مع رسوله من الرجال غيره. . .
معاشر الناس فضلوه فقد فضله الله، واقبلوه فقد نصبه الله. . .
معاشر الناس إنه إمام من الله، ولن يتوب الله على أحد أنكر ولايته، ولن يغفر له! حتما على الله أن يفعل ذلك بِمَن خالف أمره فيه، =

ونضيف بمناسبة حديثنا عن تمام النعمة ـ في تفسير الآية الثالثة من السورة ـ بحج المسلمين لا يخالطهم المشركون: أن الآيات الأولى من سورة براءة التي نزلت في هؤلاء المشركين، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾، يقول علي بن إبراهيم القُمِّي في قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الآية: "إنها نزلت في أصحاب الجمل..."[1]، وذكر في ذلك «حديثا» عن علي بن أبي طالب ﷺ.

ولا يتردد أحد في الحكم على سبب النزول الذي توصف فيه أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂، ويوصف فيه

= وأن يعذبه عذابا شديدا نُكرا، أبد الآباد ودهر الدهور، فاحذروا أن تخالفوه فتصلوا نارا وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.
معاشر الناس فَضِّلوا عليا فإنه أفضل الناس بعدي من ذكر أو أنثى، بنا أنزل الله الرِّزقَ، وبقي الخلق؛ ملعون ملعون، مغضوب مغضوب من ردَّ عليَّ قولي هذا ولم يوافقه! ألا إن جبريل خبَّرني عن الله تعالى بذلك، ويقول: "من عادى عليا ولم يَتَوَلَّه فعليه لعنتي وغضبي"؛ فلتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ، واتقوا الله أن تخالفوه فتَزِلَّ قدمٌ بعدَ ثُبوتِها إن الله خبير بما تعملون.
معاشر الناس إنه جنب الله الذي ذكر في كتابه فقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٦٥].

(١) تفسير القمي: ٢٨٢/١

طلحة والزبير ﷺ، بأنهم «أئمة الكفر» بأنه حديث موضوع، بغض النظر عن دين الواضع وعلمه.

علما بأن المسألة التي نتحدث عنها في هذا السياق، هي أن هذه الآيات الكريمة التي نزلت في المشركين «ينتقي» منها القُمِّي وضرباؤه من مفسري الإمامية، ما يجعلونه في أمهات المؤمنين أو في صحابة النبي الكريم، أو سواهم ممن يرغب الإمامية في تكفيرهم أو الطعن فيهم أو تشويه سمعتهم والانتقام منهم؛ فيهدمون بذلك السياقَ القرآنيَ ونظمَ الآيات، ويجعلون القرآن عِضِين.

ثم يستدل بهذه الأسباب، أو بهذه الحكايا والرزايا ونحوها من الأسباب، على أن تأليف القرآن على خلاف ما أنزله الله، أو على أن الصحابة ﷺ كفروا وارتدوا بعد رسول الله ﷺ[1]. . بئست هذه المزاعم، وجازى الله تعالى من افتراها على كتابه الكريم بما يستحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر الباب الذي عقده الفيض الكاشاني في كتابه (الوافي) بعنوان: (باب أن عامّة الصحابة نقضوا عهدهم وارتدوا بعد رسول الله ﷺ)، وذكر فيه ثلاثة وثلاثين (حديثا)، جميعها من رواية الكليني في كتابه (الكافي)، وجميعها أيضاً مما لا يخفى وضعه وتركيبه وترتيبه وسخفه على أي عاقل.

انظر الوافي: المجلد الثاني، الأحاديث (٦٤٤ ـ ٦٧٦)، ص (١٨٤ ـ ٢١٥).

١ ـ **أصول الكافي للكليني**: دار المرتضى، بيروت ١٤٢٦هـ.

٢ ـ **البداية والنهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي**: المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

٣ ـ **تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر**: دار إحياء التراث العربي، لبنان ٢٠٠١م.

٤ ـ **تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي**: المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

٥ ـ **تفسير الصافي للفيض الكاشاني**: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٦ ـ **تفسير القمي لعلي بن إبراهيم القمي**: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٧ ـ **جامع الترمذي**: تحقيق الأستاذ عادل مرشد ـ دار الأعلام، عمان ١٤٢٤هـ.

٨ ـ **الاحتجاج لأبي منصور الطبرسي**: دار المرتضى، بيروت ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم**: تحقيق: شعيب الأرنؤوط (مد الله في عمره) وعبدالقادر الأرنؤوط رحمه الله تعالى/مؤسسة الرسالة: بيروت.

١٠ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: لابن عبدالبر القرطبي دار الأعلام، عمان ١٤٢٣هـ.

١١ ـ **شرح النووي على مسلم (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)**: بيت الأفكار الدولية.
١٢ ـ **صحيح البخاري**: للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية ـ الرياض ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
١٣ ـ **صيانة القرآن من التحريف**: للشيخ محمد هادي معرفة، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم (إيران) ١٤١٣هـ.
١٤ ـ **عبقرية الإمام**: للأستاذ عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية ـ لبنان.
١٥ ـ **علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه للمؤلف**: دار الأعلام ـ عمان ١٤٢٦هـ.
١٦ ـ **فتح القدير للإمام الشوكاني**: دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٣هـ.
١٧ ـ **فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب**: للنوري الطبرسي (توفي ١٣٢٠هـ) ـ طبعة حجرية.
١٨ ـ **في ظلال القرآن**: للأستاذ سيد قطب، طبعة دار الشروق.
١٩ ـ **مجمع البيان**: للشيخ أبي علي الطبرسي (تـ ٥٤٨هـ)، دار المعرفة بلبنان ١٤٠٦هـ (عن طبعة إيرانية).
٢٠ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لابن عطية الأندلسي ـ طبع دولة قطر.
٢١ ـ **مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار**: للمحدث الحجة السيد عبدالله شبر (ت ١٣٤٢هـ). مؤسسة النور للمطبوعات ـ بيروت ١٤٠٧هـ١٩٨٧م.
٢٢ ـ **مصطفى السباعي**: للمؤلف ـ الطبعة الثانية ـ دار القلم دمشق ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
٢٣ ـ **نهج البلاغة (من كلام علي بن أبي طالب** رضي الله عنه**)**: جمع أصله الشريف الرضي رحمه الله. **دار المرتضى، بيروت ١٤٢٣هـ.**
٢٤ ـ **الوافي**: للفيض الكاشاني ـ مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام العامة، أصفهان (إيران)١٤١٢هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	٧
أولاً: روايات الكُليني والصَّدُوق	١١
تعقيب..	١٤
ثانياً: تفسير آية (الولاية): نقد وتعليق	١٧
١ ـ الآيات هي التي فسرت معنى الولاية	١٧
٢ ـ سبب نزول هذه الآيات	٢٠
٣ ـ معنى ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ وإعرابها	٢١
٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جَمعٌ وليس مفردًا	٢٣
٥ ـ زكاةٌ واجبةٌ لا صدقةُ تَطَوُّعٍ	٢٥
ثالثاً: تفسير آية البلاغ: نقد وتعليق	٢٧
١ ـ ضيق صدر النبي ﷺ افتراء على الله ورسوله	٢٧
٢ ـ سِياقُ ونَظمُ الآيات	٢٨
٣ ـ حول سبب النزول	٣٣
٤ ـ «نَظْمُ» الآية!	٣٥

الموضوع	الصفحة

٥ ـ تناقض وبهتان.. ومزاعم تحريف! ٣٦
٦ ـ مَنحًى آخر في تفسير الآية ٤٠
رابعاً: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ٤٣
١ ـ معنى كمال الدين وتمام النعمة ٤٤
٢ ـ من رواية إمامية في حجة الوداع ٤٧
٣ ـ الوحي يضع الآية في سياق الأحكام ٥٠
نقطتان في التعقيب على الآيتين ٥٢
خامساً: الإمامة وحديث غدير خُم ٥٣
١ ـ سبب هذا الحديث ٥٣
٢ ـ حديث الغدير لا صلة له بالإمامة والخلافة ٥٧
٣ ـ تفسير الحسن المثنى رضي الله عنه للحديث ٥٧
٤ ـ موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الحديث ٥٩
٥ ـ علي رضي الله عنه يُقرِّر أن الخلافة بالشورى ٦١
سادساً: بين السياق وإجماع أهل التفسير ٦٣
سابعاً: حول بعض أسباب النزول في كتب الإمامية ٦٧
النقطة الأولى ٦٨
أما النقطة الثانية ٧٠
المصادر والمراجع ٧٧
فهرس الموضوعات ٧٩